المذهب الحنفي ورجاله ببلاد المغرب الإسلامي
من خلال كتب الطبقات والتراجم

د.خالد بوهند
جامعة سيدي بلعباس

هناك عدة عراقيل وصعوبات قد تعيق الإجابة على السؤالين التاليين و هما : متى ظهر المذهب الحنفي في بلاد المغرب الإسلامي ؟ و من هم رجالاته ؟ ، و يمكن إرجاع ذلك إلى قلة المعلومات التاريخية و ندرتها ، بل و تضاربها أحيانا ، ومع ذلك يوجهنا الشيخ "عبد الرحمن الجيلالي " في كتابه الموسوم "تاريخ الجزائر العام" في الجزأين الأول و الثالث (طبعة : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1995) ، في أن المذهب الحنفي كان موجودا في إفريقية(تونس) والمنطقة الشرقية من المغرب الأوسط(الجزائر) ، وذلك في عهد الأغالبة (184هـ-800م) الذين كانوا يمثلون الخلافة العباسية ، حيث : « كان جل اعتماد أمراء إفريقية من العرب في هذه الفترة إلى آخر عهد الأغالبة(296هـ-909م) على العراقيين من فقهاء المذهب الحنفي » ، بحيث كان الحكام على مذهب أهل العراق ، أما السكان المحليون(البربر) وزعماؤهم من فقهاء ، كانوا على مذهب الإمام مالك رحمة الله عليه .

وقد يكون –حسب الجيلالي-دائما ، أول من نشر المذهب الحنفي بهذه الربوع هو أبو محمد عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي(172هـ-788م)[1] . فمن يكون؟ . قبل أن نتطرق إلى هاته الشخصية التي نعتبرها محورية في هذا البحث ، لا بأس من تعريف وجيز نسلط الضوء من خلاله على شخصية مؤسس هذا المذهب ، وأهم أفكاره .

1-أبو حنيفة النعمان ومذهبه

هو أبو حنيفة ، واسمه النعمان بن ثابت مولى لبني تيم الله بن ثعلبة من بكر بن وائل [2] ، ولد عام 80هـ ، عاصر الدولتين الأموية والعباسية ، نشأ في الكوفة ، واشتغل أول أمره بالتجارة ، ثم اتجه إلى طلب العلم [3] حتى أصبح أحد الأئمة الأعلام وفقيه أهل العراق ، أدرك جماعة من أصحاب النبي (ص)، ورأى أنس بن مالك خادم رسول الله(ص) وصاحبه غير مرة لما قدم عليهم الكوفة[4] .

وهو صاحب الرأي [5] ، لأن العراق في ذلك العصر(وهو العصر العباسي)، كان يموج بالآراء الفلسفية وبمختلف العلوم الإسلامية ، وقد قامت بالكوفة مدرسة الرأي ، ولهذا أخذ أبو حنيفة الفقه عن حماد بن أبي سليمان الذي تلقى العلم عن إبراهيم النخعي ، وكلهم من فقهاء الرأي[6].

ويجب التذكير هنا بأن أبا حنيفة (صاحب الرأي) ، عُد من الأئمة المجتهدين ، والاجتهاد في الإسلام يعتمد على أركان أربعة وهي الكتاب (القرآن الكريم) ، والسنة [7](قول الرسول (ص) –أحاديث-، وفعله-أدائه الفرائض-وما أقره الرسول (ص)- وصدر من بعض أصحابه من أقوال وأفعال)[8] ، والإجماع (إجماع الخلفاء الراشدين) ، والقياس[9] (المسألة التي لا يوجد لها حكما في القرآن أو السنة أو الإجماع ، فيفتش عما يشابهها في القرآن والسنة والإجماع)[10] .ثم أن المجتهدون من أئمة الأمة ، محصورون في صنفين :

-أصحاب الحديث : أهل الحجاز ، وأصحاب مالك بن أنس ، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي، وأصحاب صفيان الثوري ، وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأصحاب داود بن علي بن محمد الأصفهاني .

- أصحاب الرأي : وقد رأينا أنهم أهل العراق ، وأصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت [11] .

واستنادا إلى روايات المقدسي–نقلا عن أبي يوسف- قال : « كان أبو حنيفة إذا وردت عليه مسألة قال : ما عندكم فيها من الآثار ، فنذكر ما عندنا ، ويذكر ما عنده ثم ينظر فإن كانت الآثار في أحد القولين أكثر أخذ بالأكثر ، وإن تكافأت أو تقاربت نظر فاختار » ، ونقلا عن نعيم بن حماد ، ذكر المقدسي : « سمعت أبا حنيفة يقول : ما جاء عن رسول الله (ص) فعلى الرأس والعينين ، وما جاء عن أصحاب رسول الله(ص) اخترنا ، وما كان غير ذلك فنحن رجال وهم رجال »[12].

والواقع أن أبا حنيفة كان يأخذ بالرأي عند فقدان النص من كتاب أو سنة ، فهو لم يخالف حديثا صحيحا بلغه ، ولكنه نظر في الرواة والروايات وأخذ بالحديث المرسل[13] إذا رواه الثقات ، وكان يعرض أخبار"الأحاد" على عموميات الكتاب وظواهره ، فإذا تعارض ترك الخبر عملا بأقوى الدليلين كما أنه لا يأخذ بخبر الواحد إذا خالف سنة مشهورة أو عمل أحد من الصحابة والتابعين ، في أي بلد ، أو كان قد طعن فيه أحد من السلف[14].

توفي أبو حنيفة ببغداد في رجب أو شعبان سنة 150هـ ، في خلافة أبي جعفر المنصور[15] الخليفة العباسي الثاني.

2- أوضاع المغرب بعد الفتح الإسلامي

ساهم العرب الفاتحون وقادتهم كعقبة بن نافع (باني القيروان) ، وحسان بن النعمان ، و موسى بن نصير ، و طارق بن زياد وغيرهم ، في نشر الإسلام في أوساط البربر ببلاد المغرب ، ثم الأندلس ، وإزالة الوثنية ومخلفات المسيحية واليهودية ، و بنوا لذلك الغرض المساجد والجوامع والمدارس[16] . وتجمع المصادر والكتب التاريخية المتخصصة ، من أن حركة الدعوة الإسلامية اشتدت في عصر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز(62هـ-101هـ) ، الذي أرسل عشرة من التابعين يفقهون

أهل المغرب في دينهم فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة [17].

وبواسطة هؤلاء الفقهاء انتقلت التيارات الثقافية من المشرق إلى المغرب فانتشر علم المدينة ، ومذهب المدنيين ، وطرق الاجتهاد ، وحياة الزهد ، والتقشف . وبفضل توافد المهاجرين المسلمين بلا انقطاع إلى المغرب ، تعلم السكان مبادئ الدين ، والعربية ، وحفظوا القرآن ، وبنوا المزيد من المساجد ، وقد بقي أغلب هؤلاء التابعين في المغرب لا سيما في مدينة القيروان ، عاكفين على أداء مهمتهم حتى وفاتهم [18] .

ولكن يجب أن لا ننسى بأن البربر ما لبثوا بأعداد متزايدة أن رحلوا إلى المشرق في طلب العلم ، ومنهم من صاروا من كبار الفقهاء [19] ، مثل عبد الله بن عمر بن غانم ، قال عنه أبو العرب في كتابه "طبقات علماء إفريقية" الجزء 2 : « كان ثقة نبيلا فقيها ولي القضاء بعد مانع بن عبد الرحمن وكان عدلا في قضائه ولاه روح بن حاتم سنة 171هـ ، وهو يومئذ ابن 42 سنة ، سمع من مالك وكان يكتب إلى ابن كنانة فيسأل له مالكا عن أحكامه ، وسمع من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، ومن سفيان الثوري ، وإسرائيل بن يونس ومن غيرهم ...»[20] .

ومن "المغاربيين" الذين أخذوا العلم بالمشرق ، أسد بن الفرات المكنى بأبي عبد الله مولى بني سليم ، ذكر أبو العرب : « كان أوله(أصله) من خراسان من نيسابور وكان قد علم القرآن في قرية على وادي بجردة(كذا) قال حدثني بذلك أبي أحمد بن تميم رحمه الله يوم اختلف إلى علي بن زياد بتونس يتعلم منه العلم ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك مُوطأه ، ثم ذهب إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة...»[21] وأخذ عنهم .

3-أبو محمد عبد الله بن فروخ

إذا كان انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي وفي الأندلس بفضل أحد تلاميذ وأتباع الإمام مالك ، وهو سحنون القيرواني(177هـ-258هـ/776م-854م) ، من خلال شرح "المدونة" وهي أحد المصادر الأساسية لدراسة المذهب المالكي [22] ، فإن انتشار المذهب الحنفي كان كما ذكرنا سلفا على يد أبو محمد عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي(172هـ/788م) ، حيث ذكر أبو العرب التميمي في طبقاته في الجزء الأول ، أن هذا الأخير كان من شيوخ أهل إفريقية ، وكان مسنا عندما رحل إلى المشرق لطلب العلم حيث لقي هناك مالك بن أنس ، و سفيان الثوري ، وقد لقي أيضا أبا حنيفة النعمان ، وغيرهم من العلماء [23] ، لكن أبو العرب لم يدلنا على أن ابن فروخ قد أخذ فعلا المذهب الحنفي ونقله إلى إفريقية (تونس) التي كانت تضم إذ ذاك الجزء الشرقي من المغرب الأوسط(الجزائر).

ومهما يكن من أمر فإن الروايات التي اعتمد عليها أبو العرب في ترجمته لشخصية ابن فروخ متضاربة ومتناقضة ، فمرة يذكر بأن ابن فروخ كان عالما نزيها ، زهد من تقلد منصب القضاء الذي عرض عليه ، ذو سمعة حسنة بين أقرانه من العلماء ، وفي مواضع أخرى يذكر بأنه كان سيء السلوك ، ولا يتحرج في شرب النبيذ [24] ، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن ما نصبو إليه في مواضع أخرى.

فمن المعلوم أن أبا حنيفة النعمان لم يدون مذهبه بنفسه ولم يترك مؤلفات تنسب إليه في فروع الفقه ومسائله ، إلا أنه هو المؤسس الحقيقي لهذا المذهب بفروعه ومصادره ومختلف مسائله ، وعنه أخذ تلاميذه بنشر المذهب [25] ، وإذا صح ما أورده أبو العرب من أن ابن فروخ التقى بأبي حنيفة في رحلته المشرقية لطلب العلم ، فإننا نرجح أن يكون قد تتلمذ على يده رغم تقدمه في السن ، وهو

الأمر الذي جعله ينقل ما حصل عليه شفهيا من شيخه أبا حنيفة إلى بلاد المغرب ولا سيما إفريقية (تونس) وما كان تابعا لها من القسم الشرقي للمغرب الأوسط . توفي ابن فروخ بمصر سنة 176هـ ، ودفن بالمقطم [26] .

4-انتشار المذهب الحنفي ببلاد المغرب الإسلامي

يجب الإشارة من أنه خلال الفترة التي انتشرت فيها المذاهب الإسلامية السنية (المالكية والحنفية) ، بفضل علمائها ودعاتها في أوساط البربر، كانت المذاهب الخارجية قد انتشرت أيضا(كالصفرية و الإباضية) ، وتمكنت من جمع أتباع لها من القبائل البربرية على غرار ما قام به دعاة الإباضية مع قبائل لماية ونفوسة وهوارة [27] ، ولكن هل كان تأسيس الدولة الرستمية (الإباضية-الخارجية) منذ حوالي 161هـ ، سببا في اختفاء المذاهب السنية بصفة عامة والمذهب الحنفي بصفة خاصة ؟ .

الحق أن المذهب الحنفي سيستمر وجوده ببلاد المغرب الإسلامي(تونس والجزائر) تحت رعاية الخلافة العباسية التي كان يمثلها بهذه الديار ولاة بني الأغلب[28] ، وقد ذكر عياض–نقلا عن السلاوي : « ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهورا كثيرا إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها ، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب ، قريبا بمدينة فاس و بالأندلس » [29] ، وفي رواية البكري–نقلا عن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي- أنه :« لم يزل أهل تهودة قرب بسكرة على مذهب أهل العراق إلى أواسط القرن الخامس الهجري »[30] .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ ظهور المذهب الحنفي مع الفقيه ابن فروخ سنة 172هـ /788م (أي القرن الثاني الهجري ، الثامن الميلادي) وإلى غاية القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، كما ورد منذ قليل لدى البكري ، فإننا سنسجل وقوع أحداث تاريخية هامة طبعتها الدعوة الشيعية الإسماعيلية وسط

قبيلة كتامة ومعها صنهاجة البربريتين ، والتي أثمرت بقيام الخلافة الفاطمية ، على أنقاذ الدولة الرستمية المنهارة ، حيث نكّل الشيعة الفاطميون بالمالكيين السنة وحاربوهم [31] ، ومن غير المستبعد أنهم فعلوا نفس الشيء مع أتباع المذهب الحنفي وهم من السنة كذلك .

وعلى الرغم من انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة 362 هـ [32] ، ومحاربة المعز لدين الله بن باديس بقايا الشيعة في المغرب ، وعودة المذاهب السنية في الظهور لا سيما المالكية ، فإن المذهب الحنفي بقي موجودا لغاية ظهور الدولة الموحدية(524هـ-668هـ/1130م-1269م) التي وحدت كل المغرب ، لكنها مالت إلى العمل بالكتاب والسنة والأخذ بظاهريهما واستنباط الأحكام منهما مباشرة لغاية ذهابها ، وهو الأمر الذي لم يفسح فيه المجال إلا لعودة المذهب المالكي [33] .

-خاتمة

إن المغرب الإسلامي ، لا سيما منه إفريقية(تونس) والمغرب الأوسط(الجزائر) منذ الفتح الإسلامي وإلى غاية الاحتلال الفرنسي ، لم يكن معزولا عن العالم الإسلامي أو مغلقا على نفسه ثقافيا ودينيا ، فلقد تدافعت فيه المذاهب الإسلامية غير السنية (الاباضية والإسماعيلية) ، ومع ذلك حافظت المذاهب السنية ممثلة في المذهبين الحنفي و المالكي ، على بقائهما وتأثيراتهما ، بل وعلى بقاء المغرب الإسلامي سنيا (عموما) إلى يومنا هذا ، والفضل في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى الرجال المخلصين على غرار سحنون القيرواني ، و أبو محمد عبد الله بن عمر بن فروخ ، و المعز بن باديس ، و محمد بن العنابي وغيرهم .

الهوامش :

(1)- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام . ج1. ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995، ص.158. وأيضا : ج3 .ص.511.

(2)- محمد بن سعد البصري ، الطبقات الكبرى. ج.6.(تحقيق: محمد عبد القادر عطا). دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997، ص.348.

(3)- محمد مقبول حسين ، محاضرات في تاريخ التشريع الإسلامي . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1994، ص.152.

(4)- أبي عبد الله المقدسي ، مناقب الأئمة الأربعة . (تحقيق : سليمان مسلم الحرش).مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1995، ص.58.

(5)- البصري ، المصدر السابق ، ص.348.

(6)- حسين ، المرجع السابق ، ص.152.

(7)- محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، الملل والنحل . (تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي) .المكتبة العصرية ، بيروت ،2005،ص.163.

(8)- طالب عبد الرحمن ، السُنة عبر العصور. ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1993، ص.13.

(9)- الشهرستاني ، نفس المصدر ، ص.163.

(10)- حسين ، المرجع السابق ، ص.65.

(11)- الشهرستاني ، نفس المصدر ، ص.170.

(12)- المقدسي ، نفس المصدر ، ص.68.

(13)- الحديث المرسل: هو الحديث الذي يرفعه التابعي إلى النبي(ص).

(14)- حسين ، نفس المرجع ، ص.153.

(15)- البصري ، نفس المصدر ، ص.348.

(16)- موسى لقبال ، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم) .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص.ص.131-132.

(17)- أورد ذلك كل من : أبي العباس السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .(اعتنى به: محمد عثمان) .م1.دار الكتب العلمية ، بيروت،2007،ص.112. وألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم .(ترجمة: عبد الرحمن بدوي).دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1987، ص.97. وأيضا الجيلالي ، المرجع السابق ، في الجزء 3، ص.510. ولقبال ، المرجع السابق ، ص.132.

(18)- لقبال ، نفس المرجع ، ص.ص.132-133.

(19)- بل ، نفس المرجع ، ص.97.

(20)- أبي العرب محمد التميمي ، طبقات علماء افريقية .ج2.(جمع وتحقيق: محمد بن أبي شنب) . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2006، ص.ص.43.

(21)- نفس المصدر ، ص.ص.81-82.

(22)-Mohamed Ghalem ,« l'islam algérien avant 1830 : le malikisme» .Revue Insaniyat , n=31, janvier-mars 2006 , P.64.

(23)- التميمي ، المصدر السابق ، ج1، ص.34.

(24)- نفس المصدر ، ص.ص.35-37.

(25)- حسين ، المرجع السابق ، ص.152.

(26)- التميمي ، المصدر السابق ، ص.36.

(27)- لمزيد من الاطلاع أنظر: خالد بوهند ، بحوث وقراءات في تاريخ الجزائر العام . الجزء1. دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، 2008، ص.ص.138-148.

(28)- الجيلالي ، المرجع السابق ، ص.511.

(29)- السلاوي ، المرجع السابق ، ص.113.

(30)- الجيلالي ، نفس المرجع ، ص.511.

(31)- بوهند ، نفس المرجع ، ص.ص.221-224.

(32)- نفس المرجع ، ص.229-230.

(33)- الجيلالي ، المرجع السابق ، ص.512.